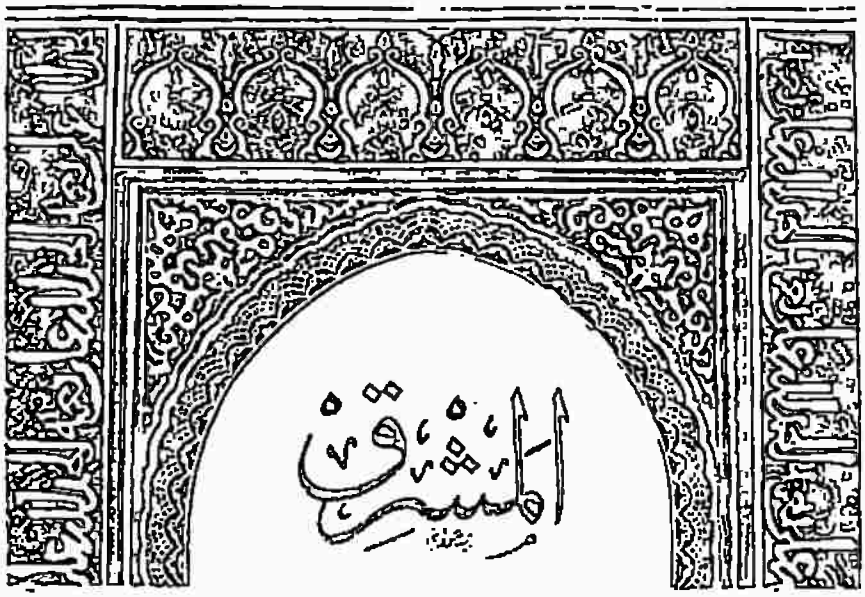

تشرين الاول ١٩٣٠

البطريرك بولس مسعد

١٨٠٦ – ١٨٩٠

بقلم سيادة المطران اغوسطين البستاني

وقفنا في هذه الاثناء على ترجمة السعيد الذكر البطريرك بولس مسعد ، كتبها سنة ١٩٠٤ الاب اغوسطين البستاني النائب البطريركي في الزهرانية الحابية اللبنانية الماروتية (هو سيادة المطران اغوسطين البستاني رئيس اساقفة صيدا الحالي) فاستأذنا سيادته بنشرها في « المشرق » ، فاذن بكل ارتياح ! واخبرنا انه بعد ان انتهى من وضعها عرضها على غبطة السيد مار الياس بطرس الحويك ، البطريرك العالي الجليل ، وعلى المتقي الرحمات المطران يوسف نجم ، والمطران يوسف خريان ، الاسقفين البطريركيين ، والمطران بولس مسعد ، مطران دمشق ، ابن شقيق المترجم ، فوافق جميعهم على صحة رواياتها. (المشرق)

هو بولس بن مبارك بن يوسف زياده بن مسعد بن ابي مسعود خاطر بن ثابت بن خاطر بن داود ابن الشدياق يوسف ابي رعد المسمى خاطر المقدّم في حية بشري ابن الشدياق شاهين الحصروني من بيت مشروق ابن رعد بن شاهين الذي ارتحلت اولاده من صدد الشرق الى قرية حصرون سنة الف واربعمائة وسبعين ، وكان اصلهم منها ، وغادروها زمناً بسبب ما كان حاصلاً في نواحيها

من الظلم والشغب ؛ ثمَّ عادوا اليها حين خيَّم في ربوعها الامن والسلام. وسنة الف وستمائة وثلاث عشرة انتقل خاطر وبعض اقاربه الى مزرعة بيت قصاص في جبة المنيطرة . وسنة الف وستمائة وخمسين رحل عنها الى بلاد كسروان ، فتوطن قرية عشقوت ، حيث وُلد هذا البطريرك العظيم في اوائل شهر شباط سنة ١٨٠٦ ، فارضعه والداه افاريق الفضيلة والتقى ، ونشَّاه على الآداب المسيحية. ولما ميطت تمائمه ، واتقن درس مبادئ اللغتين العربية والسريانية ، ادخلاه مدرسة الرومية ، ثمَّ مدرسة عين طورا المارونية ، فدرس اصول اللغتين اللاتينية والايطالية على المرحوم الخوري انطون عريضه البشراني . ثم نقلاه الى مدرسة عين ورقه الشهيرة ، فتلقن اللغتين العربية والسريانية بفروعهما ، واعرب هناك عن فطنة رائعة استلفتت انظار اوليائه اليه واكسبته رضى السيد الذكر البطريرك يوسف حبيش الذي ، لمَّا زار هذه المدرسة وظهرت له نجابة المترجم وتفوّقه على اقرانه فضيلة وعلماً ، رقَّاه الى درجتي المرتل والقارئ في ١٩ نيسان سنة ١٨٢٤ ، ثم الى درجة الشمعداني في ٢٠ ايار من السنة نفسها.

وسنة ١٨٢٦ ارسله الى مدرسة مجمع نشر الايمان المقدس برومية العظمى لتلقي العلوم اللاهوتية والفلسفية والرياضية والقانونية والتاريخية ؛ فسعى وراء تحصيلها بجدٍ وانصباب وصبر حتى جمع أوابدها وشواردها وادرك اعمق إسرارها واقصى غاياتها ، وفاز بخصل السبق على اترابه ، ونال اسمى حظوة في عيون رؤساء المدرسة واساتذتها الذين قد طالما جاهروا بالثناء عليه معجبين بحدة ذهنه وقوة عارضته وتنافسه في حفظ القوانين المدرسية . وكان اذ ذاك البطريرك يوسف حبيش يكلفه قضاء بعض اموره لدى المجمع المقدس ، فكان يقوم بالمهمة بزيد الفطنة والنشاط ، كما تشير الى ذلك الرسائل المتبادلة بينه وبين البطريرك المشار اليه ، ولا يزال بعضها محفوظاً في خزانة البطريركية المارونية ، والبعض الآخر في مدرسة القديسين بطرس وبولس بعشقوت.

وفي سنة ١٨٣٠ اذ أتمَّ علومه وشُهد بكفائته التامة ، ألمَّ به داء مزعج ، فاستدعاه البطريرك يوسف حبيش الى لبنان ، فامتثل اشارته ، فودَّعه اساتذته بحرارة النفس وهنأوه بنجاحه الباهر ، ودعوا له بالشفاء التام العاجل ، وأودعوه ما

هو اهله من كلمات المدح وادلّة الرضى ، واتحفه بعض السادة الكرادلة بكتب نفيسة لأئمة العلماء الشرقيين والغربيين عربون العطف والاكرام . ولمّا بلغ المقر البطريركي في لبنان تلقاه ابوه البطريرك يوسف حبيش بمنتهى الانس والترحاب ، وما لبث ان رقاه الى الدرجة الكهنوتية في ١٣ حزيران من السنة نفسها ، وعيّنه كاتباً لاسراره ؛ فقام باعباء هذه الوظيفة أحسن قيام مبرهناً في الاشغال على اختلافها عن سعة اطلاعه في العلم ، ودقّة نظره في حلّ المشاكل ، وشدة حرصه على حقوق طائفته . واشتهر بطهارته الملائكية ، وفضائله الراسخة ، وتجرّده عن الاميال البشرية والاغراض الذاتية ، وصدق امانته ووفائه لمخدومه البطريرك الموما اليه الذي اولاه كل ثقته لما تجلّى له فيه بالاختبار من طيب الفطرة وصفاء الجوهر واستقامة القصد .

وفي ٢٨ آذار سنة ١٨٤١ رقاه عن كل جدارة واستحقاق الى درجة الاسقفية المقدسة في كنيسة دير مار جرجس علما ، وجعله مطراناً شرفياً على طرسوس ونائباً روحياً له ، متوسماً فيه خيراً عظيماً للطائفة وملاذاً حريزاً لها في مستقبل الايام . فأخذ عندئذٍ يجول في انحاء الابرشية البطريركية يوزع الاسرار ، ويصدع بكلمة الحقّ ، ويمهد المصاعب والعراقيل بين ابنائها في ما بقي من ايام البطريرك يوسف حبيش ، وفي عهد خلفه الحميد الذكر البطريرك يوسف الخازن . ومع ما كان يتنازعه من مثل هذه الشواغل المهمة ، ويتنابه من الامراض المزعجة ، لم يكن يحجم عن وضع الكتب المفيدة والوسائل المعتبرة تأييداً لتعليم الكنيسة الرومانية المقدسة ومحاماة عن شرف طائفته ، فألّف في تلك الاثناء كتابه « الدرّ المنظوم » ، وهو سفر نفيس تضمن من الشروح الضافية في تاريخ الشرق القديم والحديث ، والبراهين الساطعة والحجج الدامغة في شرف الطائفة المارونية واستمرارها الدائم على الايمان الكاثوليكي الروماني القويم ودحض مزاعم خصومها ، ما هو السحر الحلال واغلى من اللآلئ الغوال . وقد ذاع امر هذا الكتاب في الشرق والغرب ، فاقبل العلماء الاعلام على اقتنائه وادّخار فوائده ، وانزلوه بين الكتب التاريخية ارفع منزلة من الاعتبار ، واصبح مرجعهم في اكثر الحوادث المتعلقة بتاريخ الشرق ومحوّلهم

بتاريخ الطائفة المارونية . ثم كتابه « دحض رسالة فتح الله مرّاش » يوضح به انبثاق الروح القدس من الآب والابن باجلى عبارة واقوى برهان. وايضاً كتابه في المحاماة عن بتولية سيدتنا القديسة مريم والدة الله سماه « النجمة الغرّاء في تثبيت بتولية مريم العذراء » ، وغير ذلك من المقالات الرائعة ، وكلها تعلن غزارة مادته ، وسموّ عقله ، وسلامة ذوقه في اساليب الكلام وفنونه ، واستقامة مسلكه في فن الجدال وآداب المناظرة ، ومهارته في معرفة حقائق التاريخ ووقائعه .

* ٥ *

في الثالث من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٥٤ رقد بالرب البطريرك يوسف الخازن ، فاجتمع مطارنة الطائفة لاختيار خلف له . فاجمع رأيهم واتفقت كلمتهم على المطران بولس مسعد المترجم له ، فرفعوه الى السدة البطريركية الجليلة بالصوت الحي في الثاني عشر من الشهر المذكور والسنة نفسها . فابتهجت ابناء الطائفة بهذا الانتخاب المقدس ، وعلقوا على بطريركهم هذا الجديد آمالاً عظيمة لما عُرف به من السجايا العالية والمقاصد النبيلة والغيرة النادرة على تعزيز شأن الطائفة وايرادها موارد المجد والسعادة . فاقبل المهنئون من كل صوب وناد الى دير سيدة بكركي ، المقرّ البطريركي الشتوي ، واجروا حفلات شائقة ومظاهرات فرح فخيمة . واثبت انتخابه قداسة الحبر الاعظم البابا بيوس التاسع بموجب براءة رسولية مؤرخة في ٢٣ آذار سنة ١٨٥٥ ، وانعم عليه بالباليون ، اي الدرع المقدس ، على يد معتمده القس امبروسيوس نطّين الدرعوني ، رئيس دير القديس انطونيوس الكبير رومية للرهبانية الحلبية اللبنانية ، واتحفه المجمع المقدس ببدلة للقداس ثمينة منسوجة كلها بخيوط الذهب والفضة والحرير كُتب على طرفها بحروف ناتئة من الذهب هذه العبارة : « من المجمع المقدس الى البطريرك بولس مسعد ، سنة ١٨٥٥ » . فاستقبل غبطته شارة التثبيت الرسولية في ديره القديس يوحنا مارون بالديمان ، المقر البطريركي الصيفي ، ولبسها بحفلة مشهودة جمت مطارنة الطائفة واسراء ومشايخ واعيان البلاد من كل رتبة ومقام ، وما برحت الالسنة تردّد الى الآن بالفخر والثناء ذكر ذلك

اليوم البهيج ، وما ظهر فيه من ادلة الحب والاجلال لرئيس الطائفة المارونية الاعلى ، وأبدي من كرم الضيافة والترحيب.

وصرف غبطته من ثمَّ عنايته الى تدبير شؤون الطائفة ، وتثقيف اكليروسها وتهذيبهم على الفضائل المسيحية والمعامد البشرية والعلوم الصحيحة ليكونوا رعاةً امناء ودعاةً صالحين للشعب الى مراعي الدين الخصبة . واول عمل رآه مهماً وضرورياً انما هو رفع مقام البطريركية في عيون الخاصة والعامة من كل نحلة وطبقة الى ذرى الكرامة والكمال ، ليتأتى له تنفيذ غاياته المقدسة ونياته الخيرية بدون صدٍّ او معارضة ، واذاعة تعليماته الرسولية على ابنائه بمطلق السلطان المُعطى لصاحب هذا المقام من لدن السيد المسيح له المجد ونائبه على الارض الجالس على السدة البطرسية ، فاقتدر بفضل حكمته وقداسته على تحقيق بغيته هذه الحميدة ، وجعل المقام البطريركي محبوباً محترماً من الجميع وملاذاً لكل مَن يلجأ اليه . وقد نهج نهجاً جميلاً في مكاتبة الاساقفة والرؤساء والكهنة والحكام والامراء والمشايخ وسائر طبقات الشعب ، فتابع بعض الاصطلاحات القديمة التي وجدها موافقة ، ونسخ البعض الآخر منها مما لم يعد لائقاً بمقامه وحالة العصر ، وانشأ غيره على الطريقة المستحسنة ، وحافظ شديد الحفظ على هذا النهج مدة بطريركيته كلها ، ولا يزال معمولاً به في البطريركية المارونية الى الآن.

وفي ١١ و ١٢ و ١٣ نيسان سنة ١٨٥٦ عقد بامر البابا بيوس التاسع مجمعاً بدير سيدة بكركي سماه «المجمع البلدي» ترأسه ، بالنيابة عن الحبر الاعظم ، سيادة المطران بولس برونوني ، القاصد الرسولي في سورية . وهو احسن واطول مجامع الموارنة بعد المجمع اللبناني . وقد افرغ فيه غبطته كنوز علمه ومعارفه اللاهوتية والتاريخية ، وطبقه على قواعد المجمع اللبناني كل التطبيق . ومن يطالعه بدقة وامعان يلتقِ من آثار القداسة والدراية والسداد ما يبهج الخواطر ويسلب الالباب.

وعلى اثر هذا المجمع المبارك اذاع التعليمات الكنسية على اكليروس طائفته من كل رتبة ومقام ليجتهدوا في اتمام واجباتهم الرعائية ، حسب نصوص المجمع

اللبناني وسائر المجامع المقدسة . ونشر المراسيم الخلاصية على ابنائه ، الشعب الماروني ، ليقبلوا على ايفاء فروضهم الدينية ، ويحيوا بوحدة المحبة والوئام ، ويحرصوا على جوهرة الايمان القويم التي ورثوها من آبائهم واجدادهم الاماجد سالمة من كل عيب ، ويخلصوا الطاعة للسلطتين الروحية والزمنية ، ويرتبطوا بوثاق الوفاق والوفاء مع من تجمعهم واياهم الوحدة البشرية . وكان يتضوع من معاني اقواله السامية وارشاداته الناجعة شذا فضائله ويفوح عبير شمائله ؛ وعلمت المراجع العالية وكل من جالسه او طالع مناشيره واوامره ومناهيه انه حبر همام ، وقائد مقدام ، ورسول للسلام ، وعاقد للوئام ، وناشر للخير العام بين الانام.

* * *

وقد جرت على عهده الميمون احداث كثيرة مهمة في هذه البلاد رواها اكثر المؤرخين المعاصرين ، وهي لا تندّ عن اهل العلم والخبرة ؛ ورام البعض من ذوي المآرب الملتوية ان يعبوا جانب هذا البطريرك العظيم ، ويسوّدوا صحيفة حكمته ، ويخطئوا تدابير سياسته ، وكانوا في خلال تلك الحوادث الخطيرة واقفين له بالمرصاد لينالوا من اقواله او من كتاباته امانيهم الساقطة . اما هو فقد علا فوق هذه المصاعب والمحن كالنسر في كبد السماء مواصلاً سيره على مسلك النزاهة والاستقامة بحزم لا يجارى وعزم لا يبارى يليقان بعظماء ارباب الرئاسة وقابضي زمام السياسة ، ولسان حاله يقول : صرت كلّا للكل لأربح الكل . فاقرّ له الحاسدون بسموّ الادراك ، ودقة النظر ، ونزاهة النية ؛ وطأطأوا رؤوسهم اجلالاً لصفاته الفريدة . واصبح المقام البطريركي مطمحاً للابصار والافكار في كل امر عسير ومعضلة شديدة.

فرقيت الطائفة بمدة حبريته معارج النجاح ، وازهرت بالمحاسن والاعمال ، وزين عقدها بخمسة عشر مطراناً رقاهم الى درجة الاسقفية بوضع يده الكريمة ، وكلهم من نخبة اهل الفضيلة والغيرة والعلم وهم : المطران بطرس البستاني ، مطران صور وصيدا – المطران يوسف المريض ، مطران عرقا شرفاً والنائب البطريركي – المطران بطرس مسعد ، مطران حماه شرفاً والنائب البطريركي –

المطران يوحنا الحاج ، مطران بعلبك « الذي خلفه في البطريركية » — المطران يوسف فريفر ، مطران اللاذقية شرفاً ووكيل غبطته على ابرشية البترون — المطران يوسف الدبس ، مطران بيروت — المطران نعمةالله الصحداح ، مطران دمشق — المطران امبروسيوس نطّين الدرعوني (رقاه الكرديناك فرنكه رئيس مجمع نشر الايمان المقدس مطراناً على ادنه شرفاً) — المطران اسطفان عواد ، مطران طرابلس — المطران يوسف الزغبي ، مطران قبرس — المطران يوسف مسعد ، مطران عكا شرفاً والنائب البطريركي — المطران بولس حكيم ، مطران حلب المطران الياس الحويك ، مطران عرقا شرفاً والنائب البطريركي (بطريركنا الحالي) — المطران يوحنا الحبيب ، مطران الناصرة شرفاً — المطران يوسف نجم ، مطران عكا شرفاً والنائب البطريركي — المطران بولس مسعد ، مطران حماه شرفاً والنائب البطريركي.

وقد انشأ البطريركية مكتبة حوت انفس الكتب الخطية والمطبوعة ، قديمة وحديثة ، في كل فنّ ومعنى لاشهر علماء الغرب والشرق ؛ وجمع شتات البراآت الرسولية الصادرة من لدن الاحبار الاعظمين الى بطاركة الطائفة واودعها سجلاً مخصوصاً بغاية الترتيب والنظام ؛ ودوّن ايضاً في سجلات عامة كلّ ما صدر عن البطريركية من الكتابات الرسمية والاحكام القانونية. وذلك اثر جميل اغنى البطريركية في المواد التاريخية والاصطلاحات المتعارفة بينها وبين الذين لهم علاقة معها ، وبين الخاضعين لسلطانها . ثمّ اجرى اصلاحات مهمة في المقرّ البطريركي في بكركي ، وفي الديار ، واتقنه بالاثاث الفاخر . وصرف اهتمامه الى شراء الارزاق ، فانفق في هذا السبيل نحوًا من خمسة وثلاثين الف ليرة ذهباً ، فضلاً عما كان يبذله من الاموال الطائلة احساناً لذوي البأساء واسعافاً للمشروعات الخيرية. واشتهر بكرم الضيافة وعزة النفس وبسطة اليد ، فكان كل من يؤمّ الدار البطريركية من حكام وامراء وخاصة وعامة يعجب مما يجد من السخاء ، ولاسيما ابّان طروء البلايا في لبنان من حرب وثورة ومجاعة ، اذ كانت الجموع الغفيرة تتألب زرافات زرافات سحابة النهار وسواد الليل ليشبعوا جوعهم ويكسوا اجسامهم ، وينابيع الجود تتدفق عليهم من يدي ذاك

الاب الشفيق بكل لطف وحنان ، وهـذه مزية امتاز بها ايضاً هذا الرجل العجيب حتى ضُرب المثل في جوده وكرمه.

* * *

وعرفت الدولة العثمانية سجاياه الشريفة ، فحباه سنة ١٨٦٦ السلطان عبد العزيز خانُ الوسام المجيدي من طبقته الاولى . وفي السنة نفسها انعم عليه نابليون الثالث ، امبراطور فرنسة ، بوسام جوقة الشرف . وسنة ١٨٦١ اهدت اليه جمعية الفنون في ليون حلةً للقداس هي آية في الصناعة والنفاسة لما حوت من النقوش البديعة والحجارة الكريمة.

وقد اختبر الكرسي الرسولي الرفيع الشأن رجاحة عقله واصالة رأيه ، وخضوعه العميق لمراسيمه وطاعته القلبية لتعليماته ، فاغزر عليه كلمات المدح والثناء وتناهى في رعايته واكرامه ، واستمرت صلاته مع المجمع المقدس مدة حبريته الطويلة تزداد مع الايام توثقاً واستحكاماً . ومما يُذكر فيؤثر انه في ايام بطريركيته لم يُنقض له حكم من المجمع المقدس ولم يرد عليه كلمة لوم او توبيخ ، بل لبثت حتى موته مراسلة هـذا المجمع محـلاة بعبارات الرضى والارتياح . وقد جرى بينه وبين المجمع المشار اليه بعض مفاوضات فيما يتعلق ببعض الحقوق البطريركية ، فكان ارباب يندهشون من وفرة تحقيقاته التاريخية واستدراكاته الدقيقة واساليبه اللطيفة المقرونة ابداً بتمام الخضوع والاخلاص . ولم يغفل عن تأييد جانب الرسالات الكاثوليكية وتكريم فضلتها المرسلين الغيورين ، بل امتاز بحسن الالتفات اليهم وطيب الثناء عليهم ومدح اعمالهم المجردة لمجد الله وخير الكنيسة ، مبلغاً اليهم في كثير من الفرص اجل تنشيط وتقريظ . ونظن ان هؤلاء المرسلين الافاضل لا يزالون يشعرون بمفاعيل تلك العواطف السامية.

* * *

وسنة ١٨٦٧ دعاه البابا بيوس التاسع لحضور تثبيت القديسين اليابونيين في

العيد القرني لوفاة القديس بطرس هامة الرسل ، فانتهز هذه الفرصة لتجديد وتشديد روابط انتمائه وولائه للكرسي الرسولي . وبعد ان اعدَّ معدات السفر زايل مقامه في بكركي في ٢ ايار من السنة نفسها ، مسابقاً انوار الشفق قاصداً بيروت تحت جناح الليل مجانبةً لتظاهرات المجد ومجالي الاحتفال التي كان استعدَّ لاستقباله بها اكابر الناس واكارمهم . فبلغ بيروت على حين غرة ، فاكبر العقلاء تواضعه وعظموا فضائله وخفَّ ارباب المناصب والرتب والوجهاء للسلام عليه وتأدية فروض الاجلال لذاته الجليلة ، فردَّ الزيارات الاكثر وجوباً وركب البحر في العاشر من الشهر المذكور وبخدمته الحبران النبيلان المطران يوحنا الحاج ، مطران بعلبك ، والمطران بطرس البستاني ، مطران صور وصيدا ، والخوري يوحنا حبيب ، مؤسس جمعية المرسلين اللبنانيين ، وكاتم سره الخوري نعمة الله الدحداح ، والخوري يوسف الياس الدبس ، وسمعان طنوس مسعد ، ابن شقيقه ، وجبرائيل الشمالي من سهيله ، مشيعاً بالتبجيل والتكريم من جانب الحكومة ، وقنصلاتو دولة فرنسة ، ومن سراة بيروت ولبنان حتى غصت الشوارع والاسواق بجموع المودعين . واذ ذاك سارت به وبحاشيته المشار اليها الباخرة اماريكا من شركة الماجيري ماريتيم الفرنساوية . فبلغ رومية العظمى في ٢٩ ايار ، ونزل بدير القديس انطونيوس الكبير للرهبان الحلبيين اللبنانيين الكائن قرب دير مار بطرس في السلاسل ، وتبادل الزيارات مع الكرادلة والبطاركة والمطارنة والرؤساء والاشراف واجتمع بهم في الولائم الفاخرة والمحاضر الحافلة .

وفي الرابع من حزيران حظي وحاشيته بالمثول امام الحبر الاعظم فالتقاه بمزيد الرعاية والاكرام ، واراد ان يعانقه . فابى غبطته احتراماً ، وقبل بنانه الطاهر ، فاجلسه قداسته الى يمينه ، واسمعه ما طاب من الكلام اللطيف ، واهدى اليه بطرشيلاً ثميناً محبوكاً باسلاك الفضة والذهب والحرير وايقونة كبيرة من الذهب الخالص ، وانعم بايقونات مختلفة على سائر حاشيته . وقد احضر بدعوة قداسته سائر الحفلات البيعية التي أقيمت لتثبيت القديسين اليابونيين ، ولتمجيد هامة الرسل ، والترقية بعض الاساقفة الى مقام

الكردينالية، ولتكريم بعض الاعياد المشهودة ؛ وفي كلها كان مظهرًا للرعاية والاجلال.

ولمَّا اتم مهمته في تلك المدينة الابدية القرار غادرها شاكرًا حامدًا ، ويمم باريس ، حاضرة المملكة الفرنساوية ، فوصل اليها في ٢٣ تموز ، وتشرَّف بمقابلة الامبراطور نابوليون الثالث والامبراطورة اوجيني ، فابديا نحو غبطته من ادلة الانس والاكرام ما يليق بمقامه وبشخصه الجليل . وقد قدمت له الامبراطورة نجلها الصغير طالبة منه ان يباركه فباركه ، واهدت اليه حلةً للقداس حافلة بالجواهر الكريمة والنسيج الدقيق والوشي البديع.

وبعد ان تبادل الزيارات مع وزراء الدولة وارباب المناصب الدينية ، قصد دار السعادة ، عاصمة دولتنا العثمانية ، فبلغ اليها في ٣٠ آب ، فخفَّ الى الباخرة صاحب السعادة فرنقو افندي نصرالله كوسا (وقد صار متصرفاً على جبل لبنان) موفدًا من الحكومة السنية لاستقبال غبطته ، فانزله بزوارقها الجميلة الى البرّ حيث وجد فريقاً من الجند الشاهاني قائماً لتحيته ، وخمس عجلات معدَّة لركوبه ، فاستيطنها وحاشيته يواكبه اربعة فرسان اثنان من قبل الحكومة ، واثنان من قبل المجلس البلدي ، وساروا به الى قصر يكمكجي باشي في البارا ، وهو قصر فسيح مزيَّن باحسن الرياش ، وفيه معبد للقداس بكامل لوازم التقديس ، وغرف متقنة ، وردهة للاستقبال ، وعشرة رجال ، وثلاث عجلات معينة للخدمة . فمكث بهذه الدار التي اعدتها له الحكومة مدة اقامته بالاستانة ، مغمورًا باحسانات الحضرة السلطانية التي امرت ان يقدم له من قبلها كل ما يلزم من النفقات لتوفير اسباب راحته وكرامته . وفي اليوم الثاني زار عالي باشا ، الصدر الاعظم ، ومحمد فؤاد باشا ، وزير الخارجية ، فاوفدا معتمدين ردًّا له الزيارة . ثمَّ تزاور وسائر الوزراء والسفراء والعظماء وارباب السياسة ، فاجلَّ جميعهم مقامه . واتحفه بطريرك الروم الارثوذكس بصليب وسلسلة من الذهب المصنت ؛ وقدم له ايضاً الكاثليار بولاكي حوا ، احد ابناء طائفته المشهور بالتقى والثراء ، صليباً مرصعاً بالدرر وسلسلة من الذهب دقيقة الصنع.

وفي الحادي عشر من شهر ايلول نال وحاشيته شرف المثول امام السلطان عبد العزيز خان ، في سراي طوله بنجه ، فلفظ غبطته خطاباً بديعاً ضمنه شواعر اخلاصه واحترامه للعرش العثماني ، فتنازل السلطان واظهر رضاه وسروره من رؤية غبطته وحاشيته في الاستانة ، واعرب عن تقدير صفاته واعماله وامانيه ، وشمله بكل رعاية والتفات . وعلى اثر تلك المقابلة ، انعم جلالته على حاشية غبطته باوسمة مختلفة الطبقات . ولما كان غبطته حاملاً الوسام المجيدي الاول ، اتحفه بحقة سعوط من حجر ثمين مرصعة بالالماس واللآلئ الغالية تساوي قيمتها نحو اربعين الف قرش ، قدمها له ساعة الوداع فؤاد باشا .

وبرح غبطته وبطانته الاستانة في ٢٣ ايلول لاهجين بالشكر والثناء ، فرست به الباخرة في مياه مدينة طرابلس ، في ٣٠ منه . فاستقبل هناك بابهى تظاهرات الفرح والاجلال . وبعد ان تبادل الواجبات المألوفة مع اهل المقامات الرسمية ، قصد كرسيه في الديمان تحفّ به الالوف المؤلفة من اكابر البلاد . فحلّ به في الثالث من شهر تشرين الاول على ما يُرام من اليمن والهناء . ومن اراد مزيد بيان في امر هذه الرحلة الميمونة التي احرز بها غبطته له ولطائفته لدى السلطتين الروحية والزمنية ذكرًا جميلاً ومجدًا رفيعاً ، فعليه بمطالعة كتاب «سفر الاخبار في سفر الاحبار» لمؤلفه الخوري يوسف الياس الدبس (المطران يوسف الدبس رئيس اساقفة بيروت) وقد اجتزأنا بالالماع الى ما قلّ فدلّ بقدر ما سمحت هذه النبذة الوجيزة . ولا تزال التحف التي اهديت اليه وأتينا بذكرها ، محفوظة في خزانة البطريركية المارونية بهجة للناظر واثرًا لغبطته من بعده يشهد على الدوام بما اتى الله الطائفة على يده من النعم الوسيمة ورفعة الشأن .

* * *

ومع خطورة مقامه وكثرة شواغله ومهماته ، كان لين الجانب ، دمث الاخلاق ، لا يأنف من مجادثة الفقير الذليل ، ولا يخفل بالكثير دون القليل ، يحمي جانب العدل بنفس مملوءة من عواطف الشجاعة والشهامة ، ويناهض من

يميل عن عمود الحق ويزيغ عن قصد السبيل بلين وجفاء وشدة ورخاء ، شأن الراعي الصالح المخلص الخدمة لربه والمستميت في حفظ رسومه ووصاياه ؛ يتجافى جهوده عن الأبهة الفارغة ، ويأنف من فخفخة اهل العالم ومظاهر مجده الدنيوية ، ثقةً منه بان شرف الرؤساء انما هو في اتمام واجباتهم الرعائية وتربية الرعايا على الاخلاق الصالحة والفضائل الالهية التي هي مناط السعادة في هذه الدنيا وفي الاخرى. ولذلك كان يُرى بادياً في كل وقت بمظهر الزهد والتجرّد والازدراء بالزخارف والملاذّ الدنيوية ، يقضي اوقات الفراغ بمناجاة ربه بالصلاة اللفظية والعقلية واستمداد أيده وعونه ، ضابطاً حواسه عن كل ما من شأنه ان يقلق ضميره وراحته الباطنية ، رصيناً مهيباً موقراً ، بعيداً عن الهزل والمزاح والحدة والغضب ، رائق الذهن ، سريع الخاطر ، يقظ الفؤاد ، تتجلى آيات الذكاء والحكمة في عينيه ، وتنبعث انوار الطهارة الملائكية من محيّاه ، وتتناثر درر العلم والقداسة والادب من شفتيه ، مما يجعل جليسه مفتوناً بكلامه محترماً لمقامه معجباً برقة محاضرته . وقد زاره الملك ميلان ، ملك الصرب ، في اواخر ايامه ، فاورى زند الكرم وبالغ في الاحتفاء بزائره العظيم ، فخرج الملك المشار اليه من الدار البطريركية بهجاً مسروراً ذاكراً باجمل التذكارات شهامة مضيفه ، وعزة نفسه ، وصفاء لبه . ولما بلغ الاستانة العلية ارسل اليه تلغرافاً اودعه فائق اعتباره وخالص شكره وثنائه.

وقد خوّله الله حافظة نادرة قلّ مَن رُزق مثلها ، فكان يعي في صدره نصوص الشرائع المقدسة والمجامع الخاصة والعامة والرسوم والقوانين الكنسية ، ويفقه كنه معانيها واسرارها ، حتى لم يكن يفوته ذرة من ذلك . واشتهر بمعرفة الحوادث والحروب والتقلبات السياسية التي جرت في لبنان ، واصول العائلات التي نشأت فيه ورحلت عنه وفروعها وتشعباتها وما جرى عليها من تصاريف الدهر وحسناته ، وكتب الكثير منها في وريقات منثورة لم تساعده الفرص على جمعها ؛ ولولا بحثه وتدقيقه للبث اكثر عائلات هذه البلاد تجهل اصلها وفصلها ، وهي الآن وفي كل وقت توفيه حقه من المديح . وبالجملة فقد كان هذا الحبر ، الذي قلّ ما رأت مثله عين الزمان ، من آحاد العصر في علمه

وحكمته ، وحجة اهل التاريخ في بلاده ، ومثال الكمال في تقواه وقداسته ، وامام انصار الخير والبرّ في جوده واريحيته ، جمع من المناقب الغراء والمفاخر البيضاء ما قلما يجتمع لافراد الرجال .

قضى نحبه بالرب برائحة القداسة بدير سيدة بكركي في الثامن عشر من شهر نيسان سنة ١٨٩٠ ، ولم يغب عن الصواب الّا ساعتين فقط ، ثمّ فاضت روحه الكريمة بهدوء وسكينة لم يتخللهما انزعاج ولا اضطراب متمماً واجباته الدينية والقانونية بمنتهى الانجاب والورع عن خمسة وثمانين عاماً احياها كلها في اكمل الخلال واشرف الاعمال . فبكته الطائفة المارونية بالدموع السخينة ، وخسرت به زينة احبارها ورافع منارها ومخلد آثارها وفخر رجالها ، وطيرت مناعيه الى المراجع الايجابية الدينية والمدنية ، فشمل الحزن عليه الكبير والصغير ، العالم والامير ، الشريف والحقير ، الغني والفقير . وتقاطرت الجموع الغفيرة الى المقام البطريركي لتأدية فروض التعزية بهذا الخطب الجلل والخسارة العيسة . وتوالت مثلها رسائل البرق من ذوي الحلّ والربط في رومية والاستانة وباريس والقطر المصري وسائر الاصقاع السحيقة . وصُلّي عليه في كنيسة الدير الموما اليه ، وافاض الخطباء في كلام التأبين ، ثمّ نُقل جثمانه الطاهر الى مسقط رأسه عشقوت تتقدمه راية الصليب الكريم ، وبعض السادة المطارين ، واعيان البلاد ، وفريق من الجند اللبناني ، وتخفره الوف من اللبنانيين على اختلاف الطوائف والمذاهب . وهناك أودع الضريح الذي أعدّ له بكنيسة القديسين بطرس وبولس المختصة باسرته آل مبارك مسعد ، نفعنا الله بيمن شفاعته وحسن تذكاراته .